إضاءات نقدية (فصلية محكّمة)
السنة الثالثة – العدد التاسع – ربيع ١٣٩٢ش/ آذار ٢٠١٣م
صص ٦٤ ـ ٤٩

صور الكناية فى الكلام النبوى الشريف

حجت رسولى*

على أكبر نورسيده**

الملخص

التعبير بطريق غير مباشر يعطى المسألة عمقا وجلالا، ويلبسها طراوة وجمالا. الأسلوب الكنائى يتضمن بلاغة وبراعة فى الكلام، ونكتاً وفوائد فى البيان لاتتحقّق تلك اللطائف بالتعبير المباشر. يرمى هذا المقال إلى البحث عن فن الكناية ومظاهرها فى الكلام النبوى حتى نبيِّن نبذة من بلاغة النّبى (ص) وفصاحته والإجابة عن الأسلة التالية، ومنها ماهى مكانة الكناية عند النبى(ص) وكيف كان يستخدمها؟ كم كان عدد الكنايات، وماهى الكناية التى يستخدمها النبى(ص)، وماهو السبب فى هذا الأمر، وكم كانت تساعد الكنايات لتقريب المعنى إلى ذهن المستمعين؟ وطريقنا فى هذا العمل هو اختيار عدد من كلمات النبى المرسل(ص) الذى وجدنا فيها فن الكناية والإفصاح عن البيان النبوى فى هذه الأمثلة، وعرض فن الكناية وفصولها المتنوعة وظهورها عند أفضل من نطق بالضّاد. رجعنا إلى عدد من المصادر البلاغية التى قاموا بدراسة البيان النبوىّ (ص) منها المجازات النبوية للشريف الرضى، خلال الحديث عن فنون الكناية، وسعينا فى تكميل ما عرضوا المتقدمون فى هذا المضمار والإفصاح الأكثر عن طوايا كلام النبى المرسل(ص).

الكلمات الدليلية: الكناية، الكلام النبوى، الصورة الفنية، الصورة الكنائية.

---

*. أستاذ مشارك بجامعة الشهيد بهشتى، طهران، إيران.

**. أستاذ مساعد بجامعة الشهيد بهشتى، طهران، إيران. htrasouli@hotmail.com

التنقيح والمراجعة اللغوية: د.حسن شوندى

تاريخ الوصول: ١٣٩١/١١/٢١ش تاريخ القبول: ١٣٩٢/٢/١١ش

المقدمة

الكنايــة لون من ألوان التعبير تعرض فيه الحقائق عرضاً غير مباشــر، لأنه كما أنّ بعض مقامات الكلام تقتضى التصريح بالغرض والتعبير عن المراد مباشــرة، فإنّ هناك أيضاً ما يســتدعى الإشــارة إلى المطلوب مــن بعيد، فتكون فى النفــس أوقع وأحلى، وعند بيان الغرض أنسب وأولى. يرى الجرجانى: «من المركوز فى الطبع أنّ الشىء إذا نيل بعد طلب له أو الاشــتياق إليه، ومعاناة الحنين نحوه، كان نيله أحلى وبالميزة أولى، فكان موقعه من النفس أجلّ وألطف.» (الجرجانى، ١٤٠٣ق: ١٥٨) فالأسلوب الكنائى يتضمّن بلاغة وبراعة فى الكلام، ونكتاً وفوائد فى البيان لاتتحقق تلك اللطائف بالتعبير المباشر. هذا الفن من الفنون التى يوزن بها مستوى كلام البليغ، ومدى بلاغتة وجودته. كانــت للنّبى(ص) كلمات غــير قليلة نجد فيها ملامح الكناية. هذا ما نطلب عرضه عبر الشواهد المســتخرجة من كلامه(ص). ساعيين للإجابة عن الأســئلة التالية: ما مكانة الكناية عند النبى(ص) وكيف كان يستخدمها؟ ما هى الكناية التى يستخدمها النبى(ص) أكثر، وما الســبب فى ذلك؟ وكم كانت تســاعد هذه الكنايات لتقريب المعنى إلى ذهن المستمعين؟

وبالنســبة لخلفية البحث الذى اخترناه فنقول إنّه لقيت دراســة الحديث النبوى من الوجهة البيانية بعض الاهتمام عند علماء الأدب والبلاغة، منهم: "الجاحظ" (ت٢٥٥ق) الذى يأتى فى كتابه "البيان والتبيين" بنماذج من أحاديثه(ص)، ويقارن بينها وبين أقوال بعــض الشــعراء، مقرّراً من خلال ذلــك فضل كلامه(ص) على كلام غيره من البشــر. و"الشّريف الرّضى" (ت٤٠٦ق) الذى يعدّ كتابه "المجازات النبوية" محاولة رائدة لدراسة الأحاديث النبوية من الوجهة البيانية، ويمتاز بســهولة العبارة، والإيجاز، وقد اســتعمل بعض المصطلحات البيانية مثل التشــبيه والمجاز، والاســتعارة، والكناية دون التعرّض لما يدخل تحت كلّ مصطلح من المصطلحات الســابقة من أقسام، وكان يستحسن بعض الأنواع البيانية مثل الاســتعارة. و"ابن رشيق القيروانى" (ت٤٦٣ق) الذى استشهد فى كتابــه "العُمْدَة" بكلام النــبى(ص) على القواعد التى يضعهــا، ولم يكن يعمد إلى تحليل النّص ودراســته بيانياً، وإنّما كان كلامه موجزاً، وقد ثنى بيان النبى(ص). و"عبد القاهر

الجرجانى»" (ت٤٧١ق) الذى استشهد بالحديث النبوى، وقد أتى بأحاديث كثيرة فى كتابه "أسرار البلاغة". أمّا كتابه "دلائل الإعجاز" فأحاديثه قليلة. و"ضياء الدين بن الأثير" (ت٦٢٢ق) الذى استشهد فى كتابه "المثل السائر فى أدب الكاتب والشاعر" بالحديث النبوى كثيراً، واعتبر أنّ الحديث النبوى هو آلة من آلات علم البيان. إنّ هذه الدراسات تجدر الإشادة والتنويه. لكننا قمنا بدراسة خاصة "للكناية" فى الكلام النبوى حتى نبيّن على قدر استطاعتنا نبذة من البلاغة النبوية، فقد التزمنا بجمع المادة الكنائية، وتحققنا من صحة النصوص، وقد ذكرنا نصوص الأحاديث التى تتعلّق بفنّ الكناية، ورجعنا إلى مواضع الأحاديث فى "المشكاة المصابيح" و"المجازات النبوية». نفرض أن استخدام هذا الفن والفنون البلاغية الأخرى فى كلام من كان يخاطب العرب التى تخضع لسلطان اللسان أكثر من سلطان السنان كان من أبرز عوامل سيادة النبى(ص) على القلوب ونجاحه فى رسالته.

فن الكناية[1]

إنّ علماء البيان اتفقوا على أن الكناية لاتنافى إرادة الحقيقة، وهذا صحيح، بيد أنّ بعض البلاغيين أجازوا الجمعَ بينهما وإرادتهما معاً، وذلک فى مثل قولهم: "طويل النجاد" إذ يكون المراد طول النجاد مع طول القامة. إنّهم متّفقون على أنّ الكناية لاتنافى إرادة الحقيقة، ومختلفون حول جواز وقوعهما معاً، فظاهر كلام السكاكى فى بعض المواضع يوحى بجواز ذلک، وظاهر كلام الخطيب عدم جواز ذلک، بيد أنّه عاد وذكر ما يفيد جواز ذلک.

نجد فى الحديث التالى جواز إرادة الحقيقة والمجاز معاً:

– قال رسول الله(ص): «**مَن مَسَحَ رَأْسَ يَتِيمٍ لَمْ يَمْسَحْهُ إِلاَّ للهِ، كَانَ لَهُ بِكُلِّ شَعْرَةٍ تَمُرُّ عَلَيْهَا يَدُهُ حَسَنَاتٌ.**» (الخطيب التبريزى، ١٤٠٥ق: ١٣٨٨/٣)

١. الكناية لغةً: التكلّم بما يستدلّ به على شىء ولم يصرّح بذلک الشىء. (المعجم الوسيط، مادة كنى: ٨٠٢) واصطلاحاً: عند السكاكى (ت٦٢٦ق): «هى ترک التصريح بذكر الشىء إلى ذكر ما يلزمه، لينتقل من المذكور إلى المتروک.» (السكاكى، ١٩٨٦م: ١٨٩) وعرّفها الخطيب القزوينى (ت ٧٣٩ق) بقوله هى: «لفظ أريد به لازم معناه مع جواز إرادته معه.» (الخطيب القزوينى، ١٤٠٣ق: ١٤٢)

قوله(ص): "مَن مَسَحَ رَأْسَ يَتيمٍ" كناية عن الشفقة والتلطّف إليه، لأنّ مسح الرأس تنبيء عن الرحمة، فهذا كناية عن الصفة ولما لم تكن الكناية منافية لإرادة الحقيقة لإمكان الجمع بينهما فيجوز إرادة معناه الظاهر وهو مسح رأس اليتيم وقرينة عليه قوله: «بِكُلِّ شَعْرَةٍ تَمُرُّ عَلَيْهَا يَدُهُ حَسَنَاتٌ» وقد تمتنع إرادة المعنى الأصلى فى الكناية، لخصوص الموضوع. كقوله تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَي الْعَرْشِ اسْتَوَي﴾ (طه: ٥)

فائدة الكناية

يرى العلماء أنّ الكناية أبلغ من التصريح، ففى العدول إليها لابدّ من فائدة قد تكون هذه الفائدة المبالغة، أو الرغبة فى العدول عما يفحش ذكره صريحاً، أو التعبير عن حال معينة، أو عن صاحب الحال، أو غير ذلک. ومن العلماء الذين أشاروا إلى هذه الفوائد؛ محمد بن محمد بن عبدالله بن مالک، الذى ذكر بعضها قائلاً: «لا يترک التصريح بالشيء إلى الكناية عنه فى بليغ الكلام إلا لتوخّى نكتة، كالإيضاح، أو بيان حال الموصوف، أو مقدار حاله، أو القصد إلى المدح، أو الذّم، أو الاختصار، أو السّتر، أو الصيانة، أو التعمية، أو الإلغاز، أو التعبير عن الصعب بالسهل، أو عن الفاحش بالطاهر، أو عن المعنى القبيح باللّفظ الحسن.» (الرافعى، ١٩٨٤م: ٧٠) فمن فوائد الكناية المشتملة على أسرار بلاغية ما يلى:

المبالغة

إنه يقع فى التعبير الكنائى من المبالغة فى الوصف ما لايكون فى نفس اللفظ المخصوص بذلک المعنى، وذلک كقول عمر بن أبى ربيعة:

بعيدةُ مهوَى القرطِ امّا لِنوفلٍ أبوها وامّا عبدشمسٍ وهاشمِ

(ابن أبى ربيعة، ١٣٥٣ق: ٢٤٠)

وأراد الشاعر أن يصف امرأة بأنها طويلة، فعدل عن اللفظ الصريح، وجاء بالكناية، ودلّ ببُعد مهوَى القرط على طول الجيد مع المبالغة.

تظهر هذه الفائدة من خلال المثال التالى فى الكلام النبوى الشريف:

قال رسول الله(ص): «**مَن ذَبَّ عَن لَحمِ أَخِيهِ بِالْغَيْبَةِ كان حَقّاً عَلَى اللهِ أَنْ يُعْتِقَهُ مِنَ**

النَّارِ.» (الخطيب التبريزى، ١٤٠٥ق: ١٣٨٩/٣)

قال الزمخشرى: «إنّه جعل الغيبة كأكل لحم الإنسان، ولم يقتصر، بل جعلها كأكل لحم أخيه، لأنّه أشدُّ نفاراً من لحم الأجانب، وزاد فى المبالغة حيث جعل الأخ ميّتاً.» (الزمخشرى، ١٤٠٦ق: ٣٧٣/٤) وقوله(ص): "عن لَحم أَخيه" كناية عن الغيبة، لاستعمال التنزيل فيها، وهو قوله تعالى: ﴿وَلاَ يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ﴾ (الحجرات: ١٢) كأنّه قيل: من ذبّ عن غيبة أخيه فى غيبته فقد حقّ عليه دخول الجنة، أى فرض الله على نفسه أن يدخله فى الجنة، ويبعده من الجحيم، لأنه أبعد نفسه عما يكون فى قبحه، والاشمئزاز منه كأكل لحم الأخ الميّت. نرى فى هذه الكناية المبالغة التى تساعد فى تقريب المعنى المتوخّى إلى ذهن المستمعين، وهو التشجيع على الابتعاد من الغيبة التى تعدُّ من كبائر الإثم.

الإيجاز

– قال رسول الله(ص): «مَن كان لَهُ حَمُولَةٌ تَأْوِى إِلَى شبَعٍ، فَلْيَصُمْ رَمَضَانَ حَيْثُ أَدْرَكَهُ.» (الخطيب التبريزى، ١٤٠٥ق: ٦٢٩/١)

قال القارى: «الحَمُولَة: كان ما يحمل عليه من إبل وحمار وغيرها. والمعنى: تؤوى صاحبها أو بصاحبها، يعنى: من كان له حمولة تؤويه إلى حال شبع ورفاهيةٍ، ولم يلحقه وعْثَاءُ السفر، ولامشقة رمضان، فليَصُم رمضان. والأمر فيه محمول على الندب.» (القارى، ١٣٩٠ ق: ٢٧٨/٤)

قال الطيبى: «عبّر النبى(ص) عن رفاهية الحال، وعدم المشّقة بهذه الألفاظ البليغة، فخصّ لفظ "الحَمُولَة" ليدلّ على قوة الظهر وسهولة السير ووصفها بالإيواء لصاحبها إلى الشبع، فدلّ على بلوغ المنزل، بحيث تمكن من تهيئة طعام يكفيه، ومسكن يبيت فيه، ولله درُّهُ من كلام فصيح، حاول نوعى الإيجاز والإطناب، والمعانى الكثيرة حوتها هذه الكناية الموجزة.» (الطيبى، ١٤٢٥ق: ٢٣١/٢)

ويبدو أن النّبى(ص) كان يستخدم الكناية عن الصفة أكثر من الكنايات الأخرى؛ لأنه(ص) كان يبتغى إيصال الصفات المندوبة إلى المخاطبين، وهذا ما يتحقق عبر استخدام هذا النوع من الكناية أكثر. وفى الحديث المذكورة آنفاً نجد أنّ استخدام كلمة

"الحمولة" رغم قصر لفظها تدلّ على المعانى الكثيرة التى أشـير إليها أى إنّه من كان فى رفاهية فعليه صوم رمضان. وهذا الإيجاز حصيلة اسـتخدام لفظ رغم كونه قليلا يحتوى على المعانى الجمّة.

التصوير

إنّ الكناية تظهر المعانى فى صورة المحسوسات، فتجعلها ملموسة ومشهودة، وتصوّرها واضحة بيّنة. تصوير المعانى وتجسيدها من سمات الكناية، وقد تبيّن ذلک عند هذا الحديث:

– قال رسول الله (ص): «**إِنَّ الغَضَبَ مِنَ الشَّيْطَانِ، وإِنَّ الشَّيْطَانَ خُلِقَ مِنَ النَّارِ، وإِنَّمَا تُطْفَأُ النَّارُ بِالْمَاءِ، فَإِذَا غَضَبَ أَحَدُكُم فَلْيَتَوضَّأَ.**» (الخطيب التبريزى، ١٤٠٥ق: ١٤١٤/٣)

قال الزمخشرى: «قوله: "فَإِذَا غَضَبَ أَحَدُكُم فَلْيَتَوضَّأَ» أراد أن يقول: إذا غضب أحدكم فليسـتعذ بالله من الشيطان الرجيم. مشيراً إلى قوله تعالى: ﴿**وإِمَّا يَنْزَغَنَّکَ مِنَ الشَّيطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللهِ إِنَّه سَمِيعٌ عَلِيمٌ**﴾ (الأعراف: ٢٠٠) فممّا فسر به النزغ: اعتراء الغضب.»

صوّر النبى(ص) حالة الغضب، ومنشـأه ثم الإرشـاد إلى ما يسكنه، فذكر أنّ منشأ الغضب هوحثّ الشيطان، وأنّه مخلوق من النار، وبما أن النار تطفأ بالماء فعلينا أن نتوضّأ حال الغضب، لكون الماء مطفأ هذه النار التى اشـتعلت فينا. إن الوضوء مركب معجون من الماء الحسى والمطهر المعنوى المؤثر فى الظاهر والباطن، وهذا من طب الأنبياء الذى غفل عنه الحكماء.

التعبير عن اللفظ القبيح

ذكر المبرد فى كتابه الكامل: «إنّ الكناية تأتى على ثلاثة أضراب، وذكر منها: التعبير عن اللفظ الخسـيس المفحش إلى ما يدلّ على معناه من غيره، واعتبر هذا الضرب من أحسنها.» (المبرد، ١٩٩٠م: ٥/٢–٦) ويرى ابن سنان الخفّاجى: «أنّ حسن الكناية عمّا يجب أن يكنّى عنه فى الموضع الذى لا يحسـن فيه التصريح أصل من أصول الفصاحة.» (الخفاجـى، ١٤٠٢ق: ١٦٣) إنّ الكناية يتضمّن التحرّز عن التصريح بما لايحسـن ذكره صراحة، كما ترى فى قول أعرابية حينما لدغتها عقرب، وصرخت صرخة فسألها أبوها عن السـبب: قالت: «لدغتنى عقرب» قال لها: «أين؟» قالت: «الموضع الذى لايضع فيه

الراقى أنفه.» (فاضلى، ١٣٨٦ش: ٢٩٢)

هناك أمثلة فى الكلام النبوى الشريف تفيد الكناية فيها التعبير عن اللفظ القبيح، منها ما يلى:

– قال رسول الله(ص): «**إِذَا اسْتَيْقَظَ أَحَدُكُمْ مِن نَوْمِهِ، فَلاَ يَغْمِسْ يَدَهُ فى الإِنَاءِ، حَتَّى يَغْسِلَهَا، فَإِنَّهُ لاَ يَدْرِى أَيْنَ بَاتَتْ يَدَهُ.**» (الخطيب التبريزى، ١٤٠٥ق: ١/ ١٢٥)

من فوائد الحديث استعمال ألفاظ الكنايات فيما نتحاشى من التصريح به، حيث قال: "لاَ يَدْرِى أَيْنَ بَاتَتْ يَدَهُ" ولم يَقُل لعلّ يدَه وقعت على نجاسة، كناية عن وقوع اليد على ما يتجنب النبى (ص) عن التصريح به. نرى أن الكناية المستخدمة فى الحديث هى الكناية عن الموصوف أى الشيء المتجنّس. أشير إلى مكان الشيء المتجنس باستخدام كلمة تنبى عن المكان، وهى "أين".

التعبير عن حال صاحبها

أى تصوّر الكناية المستخدمة صورة المكنّى عنه كلوحٍ أمام الرائى،كما ذكر ذلك عند الحديث التالى:

– قال رَسُول اللهِ(ص): «**مَن تَرَكَ لُبْسَ ثَوْبِ جَمَالٍ تواضعاً وهُو يَقْدِرُ عَلَيهِ كَسَاهُ اللهُ حُلَّةَ الكِرَامَةِ، ومَن تَزَوّجَ للهِ تَعَالَى تَوَّجَهُ اللهُ تَاجَ المُلْكِ.**» (المصدر نفسه، ٢/ ١٤٦)

قوله(ص): "تَاجَ المُلْكِ" كناية عن إجلاله وتوقيره، أى يُعطى يوم القيامة تاجاً ومملكة فى الجنة. يظهر فى الحديث تصوير المتزوّج لله كمن يتوّج بتاج الملك فى كونه موقّراً وصاحب شأن عظيم. حاله عند الله كحال من توّج تاج الملك. فكما يكون الملك صاحب شأن وقدر عظيم عند الآخرين، المتزوج لله حتى شأنه أفضل منه؛ لأنّه صاحب شأن وقدر رفيع عند من بيده ملكوت السماوات والأرض، فقدره أرفع وشأنه أعظم. هذا يشير إلى أنّ كلّ عمل إن كان لله وفى سبيله فهو باق وأجره عند الرازق المتعال الذى يرزق من يشاء بغير حساب.

التعبير عن الزجر

الزجر على سبيل الكناية يكون أبلغ، وتأثيره فى النفوس أوقع، كما فى هذا المثال:

عن أبی ذر قال: «**أَوْصَانِی خَلِيلِی: أَنْ لاَ تُشْرِكَ بِاللهِ شَيْئاً، وإِنْ قُطِّعْتَ وحُرِّقْتَ. ولاَ تَتْرُكْ صَلاَةً مُتَعَمِّداً، فَمَن تَرَكَهَا مُتَعَمِّداً، فَقَدْ بَرِئَتْ مِنهُ الذِّمَّةُ.**» (المصدر نفسه، ١٨٣/١)

قال الطَيْبِيّ: «قوله: "فَقَدْ بَرِئَتْ مِنهُ الذِّمَّةُ" كناية عن الكفر تغليظاً وزجراً.» (الطيبی، ١٤٢٥ق: ٨٧٤/٣)

أی: ترک الصلاة تعمّداً يسبّب زجر البراءة وامتناعها وبُعدها عن تارک الصلاة. صوّرت فی هذا الحديث البراءةُ كمن يزجر ويردع نفسه عن الآخرين. من لا يُقبَل ذمّته هو الكافر ولاغير، وسبب عدم قبول الذمة هوالكفر. وعبارة "فَقَدْ بَرِئَتْ مِنهُ الذِّمَّةُ" كناية عن كون المبرَّی عنه كافرا. لأنّ الذمّة قد ازدجرت منه، وابتعدت نفسها عنه فهو كافر.

تقسيم الكناية باعتبار الوسائط

للكناية تقسيم باعتبار الوسائط أو اللوازم، فقد تكون الكناية تعريضاً، أو تكون تلويحاً، أو رمزاً، أو إيماءً. فقد ذكر السكاكی قائلاً: «ثم إنّ الكناية تتفاوت إلى تعريض وتلويح ورمز وإيماء وإشارة.» (السكاكی، ١٩٨٦م: ١٩٠)

فيما يلی نعرض شواهد هذه الأقسام فی الكلام النبوی الشريف:

التعريض

هو أن يطلق الكلام، ويشار به إلى معنى آخر يفهم من السياق نحو:« المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده.» (المصدر نفسه: ١٩٤) وذكر العلماء التعريض، وبيَّنوا فائدته وقيمته الأسلوبية، والتعريض عندهم يؤخذ، ويستفاد من السياق والقرائن، وأغراضه متعددة، منها: الذم، والتوبيخ، والتحذير لمن تلاعب بدينه، أو غرّته الدّنيا، أو أمن مكر الله، وقد يأتی التعريض عندهم لتنويه جانب الموصوف. (السيوطی، ١٣٥٨ق: ٦٣/٢) يتعرّض بعضهم للفرق بين الكناية والتعريض، منهم ذكر العمارى فی كتابه "البيان" فروقاً بين الكناية والتعريض وهی:

- إنّ الكناية تكون فی المفرد، والتعريض لايكون إلاّ فی المركب.
- وهی مستفاده من اللفظ، وهو مستفاد من السياق والقرائن.
- وهی معدودة مجازاً أو واسطة بين الحقيقة والمجاز، وهو لا يوصف بحقيقة ولا

مجـــاز، لأنه ليس من مدلول اللفظ، وإنما يجيى على هامشـــه وهو يرى التعريض أعمّ من الكناية. (العمارى، ١٩٨٠م: ١٨٤)

وقد ذكروا شـــيئاً فيما إذا كان التعريض يأتى على ســـبيل المجاز، منهم الســـكاكى الذى قال: «إنّ التعريض تارة يأتى على سبيل الكناية وأخرى على سبيل المجاز. فإذا قلت: آذيتنى فســـتعرف وأردت المخاطب ومع المخاطب إنسانا آخر معتمداً على قرائن الأحـــوال كان من القبيل الأول، وإن لم تردد إلا غير المخاطب كان من القبيل الثانى.» (السكاكى، ١٩٨٦م: ١٩٤)

ومن أمثلة التعريض عند النبى(ص) ما يلى:

– قال رســـول الله(ص): «**مَن شَـــهِدَ أَنْ لاَ إِلهَ إِلاَّ اللهُ وَحْدَهُ لاَ شَرِيكَ لَهُ وأَنَّ مُحَمَّداً عَبْدُهُ ورَسُولُهُ، وأَنَّ عِيسَى عَبْدُاللهِ ورَسُولُهُ، وابْنُ أَمَتِهِ وكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ، ورُوحٌ مِنـــهُ، والجَنَّةُ حَقٌّ، والنَّـــارُ حَقٌّ، أَدْخَلَـــهُ الله الجَنَّةَ عَلَى مَا كان مِـــن العَمَلِ.**» (الخطيب التبريزى، ١٤٠٥ق: ١٥/١)

قال القارى: قوله(ص): "وأَنَّ عِيسَى عَبْدُاللهِ ورَسُولُهُ" تعريضاً بالنصارى، إيذاناً بأنّ إيمانهم مع القول بالتثليث شرك محض لايخلّصهم من النار. ذكر "عَبْدُهُ فى عِيسَى عَبْدُاللهِ" تعريض بالنصارى، وقولهم بالتثليث، وذكر "رسوله" فى نفس العبارة، تعريض باليهود فى إنكارهم رســـالته. قوله(ص): "وابْنُ أَمَتِهِ" تعريض بالنصارى، وتقرير لعبدية عيسى(ع) أى: هو عبدى وابن أَمَتى، كيف تنسبونه إلىَّ بالبُنُوَة؟» (القارى، ١٣٩٠ق: ١٠١/١) نرى أن القسم الأول من الحديث المذكورة "مَن شَهِدَ أَنْ لاَ إِلهَ إِلاَّ اللهُ وَحْدَهُ لاَ شَرِيكَ لَهُ وأَنَّ مُحَمَّداً عَبْدُهُ ورَسُـــولُهُ" تعريض بالمسلين علاوة على ما ذكر فى كلام الشيخ القارى حول القسم الثانى من العبارة التى كان تعريضا بالنصارى واليهود.

– قال رســـول الله(ص): «**يَحْمِلُ هذا العِلْمَ مِن كُلِّ خَلَفٍ عُدُولُهُ، يَنْفُونَ عنهُ تَحْرِيفَ الغَالِينَ، وانْتِحَالَ المُبْطِلِينَ وتَأْوِيلَ الجَاهِلِينَ.**» (الخطيب التبريزى، ١٤٠٥ق: ٨٢/١)

عبـــارة: «تَحْرِيفَ الغَالِـــينَ، وانْتِحَالَ المُبْطِلِـــينَ وتَأْوِيلَ الجَاهِلِـــينَ» تعريض باليهود وتحريفهم وتبديلهـــم التوراة وتأويلها بالباطل وعُدُول بنى اســـرائيل، هم اليهود الذين حرّفـــوا كلام الله حســـب هواهم، لقوله تعالى: ﴿**مِـــنَ الَّذِينَ هَادُواْ يُحَرِّفُـــونَ الْكَلِمَ عَن**

مَّوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾ (النساء: ٤٦)

التلويح

عرّف السكاكى هذه الكناية بقوله: «فإن كانت ذات مسافة بينها وبين المكنّى عنه متباعدة، لتوسّط لوازم كما فى: "كثير الرّماد" وأشباهه، كان إطلاق اسم التلويح عليها مناسباً، لأنّ التلويح هو أن تشير إلى غيرك عن بُعدٍ.» (السكاكى، ١٩٨٦م: ١٩٤)

ومن أمثلة هذه الكناية فى الكلام النبوى ما يلى:

– جاء فى حديث نُهى عن الشرب فى الفضّة حيث قال (ص): «**فَإِنَّهُ مَن شَرِبَ فيهَا فى الدُّنْيا لَمْ يَشْرِبْ فى الآخِرَةِ.**» (الخطيب التبريزى، ١٤٠٥ق: ١/٤٨٣-٤٨٤)

قوله(ص): "لَمْ يَشْرِبْ" كناية تلويحية عن كونه جهنمياً، فإنّ الشّرب من أوانى الفضّة من دأب أهل الجنة، لقوله تعالى: ﴿قَوارِيرَ مِن فِضَّةٍ﴾ (الإنسان: ١٦) فمن لم يكن هذا دأبه لم يكن من أهل الجنة، فيكون جهنمياً. فالمسافة بين ما ذكر فى الحديث وهو "لَمْ يَشْرِبْ" وما يقصد النبى(ص) مسافة بعيدة.

– قال رسول الله(ص): «لاَ تَجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ مَقَابِرَ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْفِرُ مِنَ البَيْتَ الَّذِى يُقْرَأُ فيهِ سُورَةُ البَقَرَةَ.» (الخطيب التبريزى، ١٤٠٥ق: ١/٦٥٤)

أى: لا تكونوا كالموتى فى القبور عارين عن القراءة والذكر، غير منفرين للشيطان. أمرهم على قراءة القرآن، والعمل به، والتحرّى فى استنباط معانيه، والكشف عن حقائقه، بحيث يصير ذا جدّ وحظّ وافر من ذلك، مراغمة للشيطان، فقوله: "لاَ تَجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ مَقَابِرَ" كناية تلويحية عن هذه المعانى.

الرّمز

عرّف السكاكى هذه الكناية عندما قال: «وإن كانت ذات مسافة قريبة مع نوع من الخفاء كنحو: "عريض القفا" و"عريض الوسادة" كان إطلاق اسم الرمز عليها مناسباً، لأنّ الرمز هو أن تشير إلى قريب منك على سبيل الخفية.» (السكاكى، ١٩٨٦م: ١٩٤) وعرّف السيوطى الرّمز بأنّه: «ما يشار به إلى المطلوب مع قلّة الوسائط، وخفاء فى الملزوم.» (السيوطى، ١٣٥٨ق: ١٠٣)

نأتى بمثالين من الحديث النبوى الشريف فى هذا الصدد:

– قال رسول الله(ص): «**المُؤَذِّنُونَ أَطْوَلُ النَّاسِ أَعْنَاقاً يومَ القِيامَةِ.**» (الخطيب التبريزى، ١٤٠٥ق: ٢٠٧/١)

حول قوله: "أَطْوَلُ النَّاسِ أَعْنَاقاً" قال البغوى: «قال ابن الأعرابى: معناه أكثرهم أعمالاً، يقال: "لفلان عنق من الخير" أى: قطعة. وقال غيره: أكثرهم رجاءً، لأن من يرجو شيئاً طال إليه عنقه، فالناس يكونون فى الكرب وهم فى الروح يشرئبون أن يؤذن لهم فى دخول الجنة. وقيل معناه: الدّنو من الله تعالى. قيل معناه: أنهم يكونون رؤساء يومئذٍ، والعرب تصف السادة بطول العنق. وقيل: الأعناق: الجماعات، يقال: "جاء عنق من الناس" أى: جماعة. ومعنى الحديث: أن جمع المؤذنين يكون أكثر، فإن من أجاب دعوتهم يكون معهم.» (البغوى، ١٣٩٠ق: ٢٧٧/٢–٢٧٨)

وطويل العنق هنا، أيا كان معناها من المعانى والتفاسير المذكورة، كناية عن الفضل كما يكون عريض القفا كناية عن الحمق.

– قال رسول الله(ص): «**يَا أَهْلَ القُرْآنَ! لاَ تَتَوسَّدُوا القُرْآنَ، وَاتْلُوهُ حَقَّ تِلاَوتِهِ مِن آنَاءِ اللَّيْلِ والنَّهَارِ**». (الخطيب التبريزى، ١٤٠٥ق: ٦٧٦/١)

يردّد قول الرسول الأكرم(ص): "**لاَ تَتَوسَّدُوا القُرْآنَ**" بين الكناية الرمزية، والكناية التلويحية، فقوله هذا يحتمل الوجهين:

- **أحدهما:** أن يكون كناية رمزية عن التكاسل، أى: لاتجعلوه لكم، وسادة تنامون عليه، بل قوموا به واتلوه حق تلاوته آناء الليل وأطراف النهار.
- **ثانيهما:** أن يكون كناية تلويحية عن التغافل، فإن من جعل القرآن وسادة يلزم منه النوم، فيلزم منه الغفلة، يعنى: لاتغفلوا عن تدبر معانيه، وكشف الأسراره، ولا تتوانوا فى العمل بمقتضاه، والإخلاص فيه.

الإيماء

الكناية الإيمائية هى كناية قَلَّت وسائطها بلا خفاء. كما جاء فى بيت البحترى:

أَوَ ما رأيتَ المجدَ ألقَى رحلَه فى آلِ طلحةَ ثمّ لم يتحوَّلِ

(البحترى، ١٣٠٠ق: ٢٣٤)

ومن شواهد هذا النوع من الكناية فى الكلام النبوى ما يلى:

– قال رسول الله(ص): «**مَا مِن مُسْلِمٍ يَغْرِسُ غَرْساً، أَويَزْرَعُ زَرْعاً، فَيأكُلُ مِنه إِنسَانٌ، أَو طَيْرٌ، أَو بَهِيمَةٌ، إِلاَّ كانتْ لَهُ صَدَقَةٌ.**» (الخطيب التبريزى، ١٤٠٥ق: ٥٩٥/١)

فى قوله: "مَا مِن مُسْلِمٍ يَغْرِسُ غَرْساً" نكّر مسلماً، وأوقعه فى سياق النفى، وزاد "مِن" الاستغراقية، وخصّ الغرس والزرع، وعمّ الحيوان ليدلّ على سبيل الكناية الإيمائية على أنّ أىّ مسلم، سواء كان حرّاً أو عبداً، مطيعاً أو عاصياً، يعمل أىّ عمل من المباح، ينتفع بما عمله أىّ حيوان كان، يرجع نفعه إليه ويثاب عليه.

تقسيم آخر للكناية

قسم البلاغيون الكناية بحسب المعنى الذى تشير إليه إلى ثلاثة أقسام، وهى: الكناية عن الصفة والكناية عن الموصوف والكناية عن النسبة، وهى المطلوب بها تخصيص الصفة بالموصوف. (السكاكى، ١٩٨٦م: ١٩٠–١٩٢)

ما نشرحها فى الكلام النبوى هو النوع الأول والثانى حسب تعريف السكاكى.

الكناية عن الصفة

المراد بالصفة الصفة المعنوية لا النعت. أما أنواع الصفات التى يكنى عنها فهى متعددة، فمنها صفات تتعلق بأمور الدين، ومنها ما يتعلق بالأخلاق والفضائل، ومنها ما يتعلق بالصفات الحسية والنفسية للإنسان وغير ذلك. وقد وجدنا أمثلة عدة لهذا النوع من الكناية، بقصد إظهار بعض كنوز البلاغة النبوية التى تناثر الحديث عنها فى بطون أمّهات الكتب، وفيما يلى مثالين منها:

– قال رسول الله(ص): «**إِذَا قُبِرَ المَيِّتُ أَتَاهُ مَلِكَانِ أَسْودَانِ أَزْرَقَانِ. يُقَالُ لِأَحَدِ هِمَا: المُنْكَر ولِلْآخَرِ: النَّكِيْرُ.**» (الخطيب التبريزى، ١٤٠٥ق: ٤٦/١–٤٧)

قول النبى (ص): "أَتَاهُ مَلِكَانِ أَسْودَانِ أَزْرَقَانِ" كنايةٌ عن شدة الغضب.

قال الشراح: «أراد بالسِّواد: سوادُ منظرهما، وبالزُّرقة: زرقة أعينهما. ذلك لما فى لون السّواد وزرقة العين من الهول والنكير. الزرقة أبغض ألوان العيون إلى العرب، لأنّ الروم أعداؤهم، وهم زرق العيون، ولذلك قالوا فى صفة العدو: «أسود الكبد، أزرق

العـين» ويحتمل أن يكـون المراد قبح المنظر وفظاظة الصورة، يقـال: «كلّمت فلاناً فما ردّ علـى سـوداء ولا بيضاء» أی: فما أجابنی بكلمة قبيحة ولاحسـنة. والزرقة تقليب البصـر وتحديد النظـر، يقال: «زرقت عينه إذا انقلبت وظهـر بياضها.» وهی كناية عن شدة الغضب، فإن الغضبان ينظر إلى المغضوب عليه شزراً بحيث تنقلب عينه.» (الطيبی، ١٤٢٥ق: ٥٩٣/٢)

– قـال النبی(ص): «**إِنَّ الجَنَّةَ تُزَخْـرفُ لِرَمَضَانَ مِن رَأْسِ الحَـوْلِ إِلَى حَوْلٍ قابلٍ. قـال(ص): فَإِذَا كان أَولَ يَوْم مِن رَمَضَـانَ هَبَّتْ رِيْحٌ تَحْتَ العَرْشِ مِن ورَقِ الجَنَّةِ عَلَى الحُـورِ العِيْنِ، فَيَقُلْنَ: يا رَبَّ! اجْعَلْ لَنَا مِن عِبَادِكَ أَزْواجَاً تَقَرُّ بِهِمْ أَعْيُنَنَا، وتَقَرُّ أَعْيُنِهِمْ بِنَا.**» (الخطيب التبريزی، ١٤٠٥ق: ٦١٣/١-٦١٤)

يـردّد قوله: "تَقَرُّ بِهِمْ أَعْيُنَنَا" بين الكنايـة والحقيقة، فهو «إما من القرّ: البرد، أو من القرار.» (الراغـب الإصفهانی، ١٣٨٣ق: مادة: (قرّ)). (قرّ فی مكانة يقر قراراً إذا ثبت ثبوتاً جامداً وأصله من القر، وهو البرد.)

فالأوّل: كناية عن السـرور والفرح، وحقيقته: إبراد الله دمعة عينها، لأن دمعة الفرح والسرور باردة.

والثّـانی: عبارة عن بلـوغ الأمنية ورضاه بهـا، لأنّه من فاز ببغيته تقرّ نفسـه، ولا تستشرف عينه إلى مطلوبه لحصوله.

الكناية عن الموصوف

قـال الخطيب القزوينی: «هو الكناية التی مطلوب بها غير صفة ولانسـبة، فمنها ما هی معنیً واحدٌ، كقوله:

الضاربين بـكلّ أبيض مخذمٍ والطاعنين مجامـع الأضغان

كناية عن القلب، أو إذا كان المكنّی عنه شـيئاً محسوسـاً أوملموساً أوشخصاً، كقوله تعالى: ﴿**وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْواحٍ ودُسُـرٍ**﴾ (القمر: ١٣) كناية عن السفينة، ومنها ماهی مجموع معانٍ كقولنا كناية عن الإنسـان: حیّ مسـتوی القامة عريض الأظفار، وشرطها الاختصاص بالمكنّی عنه.» (الخطيب القزوينی، ١٤٠٣ق: ٣٩٩)

وفيما يلی مثالين لهذا النوع من الكناية فی الكلام النبوی الشريف:

– قال رسـول الله(ص): «**اجْتَنِبُوا السَّبْعَ الْمُوبِقَاتِ**» وذكر فى آخر الحديث: «**وقَذْفُ الْمُحْصِنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ الغَافِلاَتِ.**» (الخطيب التبريزى، ١٤٠٥ق: ١/٢٢-٢٣)

قوله: "الغافلات" كناية عن البريئات، لأنَّ البرى، غافل عما بهت به من الزّنا.

– قال على(ع) عن رسـول الله (ص): «**يُوْشِـكُ أَنْ يأتِى عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ لاَ يَبْقَى مِنَ الإِسْـلَامِ إِلاَّ اسْمُهُ، ولاَ يَبْقَى مِـنَ القُرْآنِ إِلاَّ رَسْمُهُ، مَسَـاجِدُهُمْ عَامِرَةٌ وهِىَ خَرَابٌ مِنَ الهُدَى، عُلَمَاؤُهُمْ شَـرُّ مَن تَحْتِ أَدِيْمِ السَّـمَاءِ مِن عِنْدِهِمْ تَخْرُجُ الفِتْنَةُ وفيهِمْ تَهُودُ.**» (المصدر نفسه، ١/٩١)

قولـه (ص): "هِىَ خَـرَابٌ مِنَ الهُدَى" أى: من ذى الهـدى أو الهادى، لأنه لو وجد الهادى لوجد الهدى، فأطلق الهدى وأريد الهادى على سبيل الكناية، وهو يحتمل معنيين:

- **أحد هما:** أنّ خراب المسـاجد من أجل عدم الهادى، الذى ينتفع الناس بهداه فى أبواب الدين، ويرشدهم إلى الخير.
- **وثانيهمـا:** أن خرابهـا لوجـود هداة السـوء، الذين يزيغون النـاس ببدعهم وضلالهم، وتسميتهم بالهداة من باب التهكّم.

نفـرض الوجه الثـانى أولى، وينصر ما فى الحديـث وهو قوله: "عُلَمَاؤُهُمْ شَـرُّ مَن تَحْتِ أَدِيْمِ السَّـمَاءِ"، فالعلماء هم الهداة، وهم موجودون، إلاّ أنهم ابتعدوا عن تطبيق ما يعرضونه للناس، فصاروا هداة سوء فضلّوا وأضلّوا.

پژوهشگاه علوم انسانی و مطالعات فرهنگی
پرتال جامع علوم انسانی

النتيجة

الكناية من الفنون البيانية التى تسـتخدم فى كلام الفصحاء والبلغاء البارعين لكثرة تأثيرها وقلّة ألفاظها، وكما نعلم خير الكلام ما قلّ ودلّ. قمنا فى هذه المقالة بدراسـة الكنايـة بفروعاتها كما وردت فى أمهات الكتب البلاغة، وأعددنا فروعها، وقسـمناها إلى عدة أقسام، وذكرنا أمثلة من الكلام النبوى لكلّ منها. نظراً إلى مكانة الكناية عند النبى(ص) لكونه من الفنون البيانة الهامة والمؤثرة على المسـتمعين أشرنا إلى دراسات عن البيان النبوى التى قام بها عدد من العلماء منهم الجاحظ البصرى والشريف الرضى والجرجانى، وقد أشدنا بمسعاهم فى هذا المضمار. ووصلنا إلى:

١- أنّ استخدام هذا الفن والفنون البلاغية الأخرى فى كلام من كان يخاطب العرب

التى تخضع لسلطان اللسان أكثر من سلطان السنان كان من أبرز عوامل سيادة النبى المرسل(ص) على القلوب ونجاحه فى رسالته.

٢- أنّه نظراً إلى الكمّ الكثير من الكناية المستخدمة نستنتج أنّه(ص) كان يعلم مكانة هذا الفن، ومدى تأثيره فى المخاطبين.

٣- أنّ الكناية عن الصفة هو أكثر الكنايات المستخدمة عند النبى(ص)، والسبب فى ذلك كثرة تأثير هذا النوع من الكناية على المستمعين أنها تصور أمامهم الصورة الحقيقية لما تحتوى عليه.

٤- أنّ تأثير الكناية أكثر من الصور البيانية الأخرى؛ لأنها تشمل الوجهين الحقيقى والكنائى، وهذا ما يساعد لتقريب المعنى وتفهيمه بصورتين مختلفتين حسب إدراك المستمعين.

المصادر والمراجع

القرآن الكريم

ابن الأثير. (١٣٨٣ق). النهاية فى غريب الحديث والأثر. ت طاهر أحمد الزاوى ومحمود محمد الطناحى. الطبعة الأولى. لا مک: دار إحياء الكتب العربية.

ابن كثير. (١٩٩٥م). البداية والنهاية. الطبعة الثالثة. بيروت: دارالكتب العلمية.

ابن منظور الإفريقى، جمال الدين محمد بن مكرم. (١٣٨٨ق). لسان العرب. لا مک: دار صادر.

البحترى، الوليد بن يحيى. (١٣٠٠ق). ديوان. الطبعة الأولى. قسطنطنية: مطبعة الجوائب.

البغوى، حسين بن مسعود بن محمد الفراء. (١٣٩٠ق). شرح السنة. ت شعيب الأرناؤوط وزهير الشاويش. الطبعة الأولى. لا مک: المكتب الإسلامى.

البيومى، محمد رجب. (١٤٢٦ق). البيان النبوى. الطبعة الأولى. بيروت: دارالوفاء للطباعة والنشر.

الجرجانى، عبد القاهر. (١٤٠٣ق). أسرار البلاغة. ت: هـ. ريتر. الطبعة الثالثة. بيروت: دار المسيرة.

ـــــــــــــــ (١٣٩٨ق). دلائل الإعجاز. ت السيد محمد رشيد رضا. لامک: دار المعرفة.

الجندى، على. (١٣٨٦ق). فن التشبيه. الطبعة الثانية. لامک: مكتبة الأنجلو المصرية.

الخطيب التبريزى، محمد بن عبدالله. (١٤٠٥ق). مشكاة المصابيح. ت محمدناصر الدين الألبانى. الطبعة الثالثة. لا مک: المكتب الإسلامى.

الخطيب القزوينى، جلال الدين محمد بن عبدالرحمن. (١٤٠٣ق). الإيضاح فى علوم البلاغة. ت.عبدالمنعم خفاجى. الطبعة الخامسة. لا مک: دارالكتاب اللبنانى.

ـــ(١٩٧٨م). التلخيص فى علوم البلاغة. ت عبدالرحمن البرقوقى. لا مک: دار الفكر العربى.

الخفاجی، عبدالله بن محمد بن سعید بن سنان. (١٤٠٢ق). سر الفصاحة. الطبعة الأولی. مکة المکرمة: دار الباز.

الراغب الاصفهانی، حسین بن محمد. (١٣٨٣ق). المفردات فی غریب القرآن. ت صفوان عدنان داوودی. الطبعة الثالثة. لبنان: دار الکتب العلمیة.

الرافعی، أحمد بن محمد بن علی المقری الفیومی. (١٩٨٤م). المصباح المنیر فی غریب الشرح الکبیر. بیروت: المکتبة العلمیة.

الزمخشری، جار الله محمود بن عمر. (١٤٠٢ق). أساس البلاغة. ت عبدالرحیم محمود. بیروت: دار المعرفة.

ـــــــــــــــــــــــــــ (١٤٠٦ق). الکشاف عن حقائق غوامض التنزل وعیون الأقاویل فی وجوه التأویل. ت مصطفي حسین أحمد. بیروت: دارالکتاب العربی.

السکاکی، أبویعقوب یوسف بن أبی بکر محمد. (١٩٨٦م). مفتاح العلوم. بیروت: المکتبة العلمیة الجدیدة.

السیوطی. (١٣٥٨ق). شرح عقود الجمان فی المعانی والبیان. مصر: مطبعة مصطفی البابی الحلبی وأولاده.

الشریف الرضی، محمد بن حسین. (١٣٩١ق). المجازات النبویة. ت طه عبد الرؤوف سعد. الطبعة الأخیرة. مصر: شرکة مصطفي البابی الحلبی.

الطَیْبیّ، الحسین بن عبدالله. (١٤٢٥ق). شرح الطَیْبیّ علی مشکاة المصابیح المسمّي بالکاشف عن حقائق السنن. تحقیق د. عبدالحمید هنداوی. الطبعة الثانیة. مکة المکرمة: مکتبة نزار مصطفي الباز.

العماری، علی. (١٩٨٠م). البیان. القاهرة: مکتبة الجامعة الأزهریة.

عمر بن أبی ربیعة. (١٣٥٣ق). دیوان. الطبعة الأولی. بیروت: المطبعة الوطنیة.

فاضلی، محمد. (١٣٧٦ ش). دراسة ونقد فی مسائل بلاغیة هامة. مشهد: نشر دانشگاه فردوسی.

القاری، علی بن سلطان محمد. (١٣٩٠ق). مرقاة المفاتیح شرح مشکاة المصابیح. باکستان: المکتبة الإمدادیة.

المبرد، أبوالعباس محمد بن یزید. (١٩٩٢م). الکامل فی اللغة والأدب. بیروت: مکتبة المعارف.

مصطفی إبراهیم والزیات أحمد حسن وعبد القادر حامد والنجار محمد علی. (١٩٨٥م). المعجم الوسیط. قطر: إدارة إحیاء الثراث الإسلامی بدولة قطر.